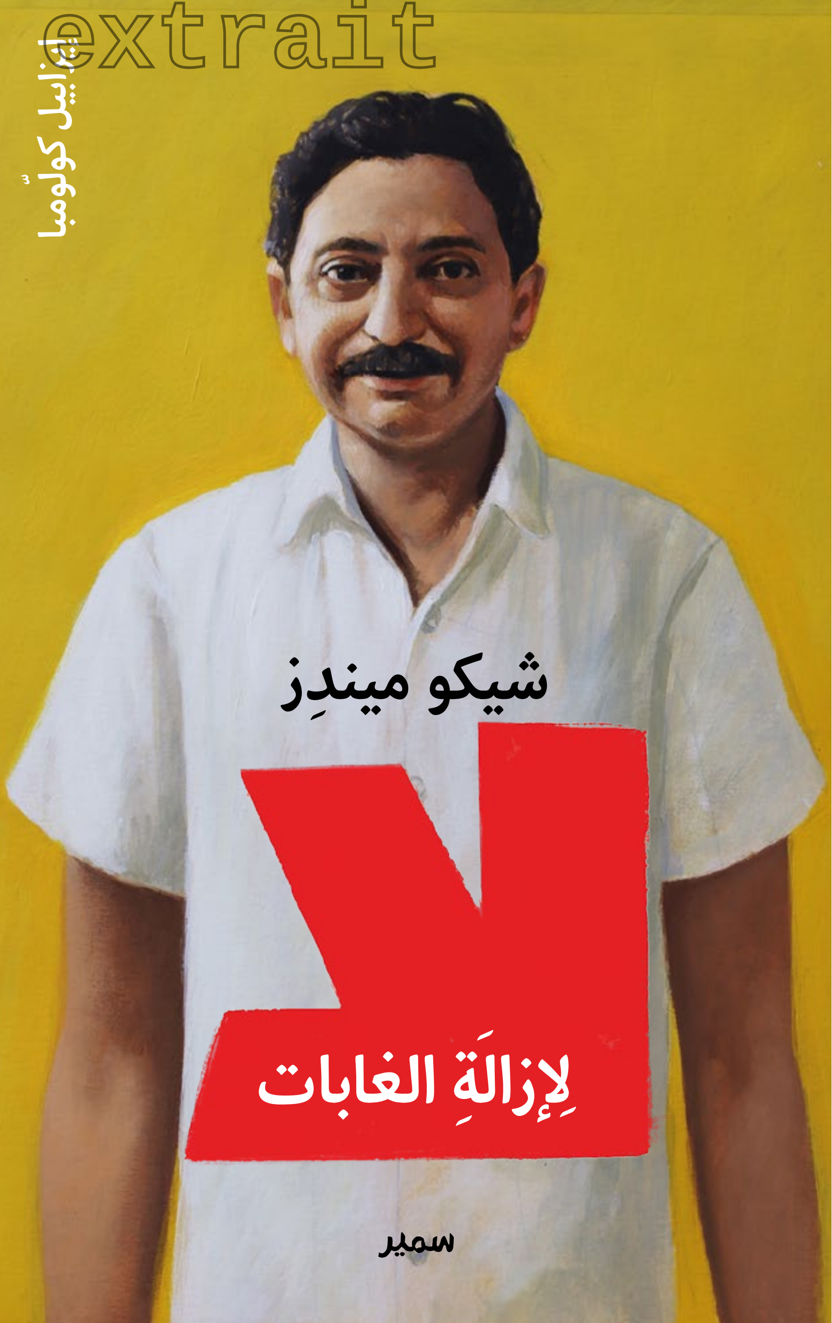
إيزابيل كولومبا



شيكو مينديز

لا لِإزالَةِ الغابات

سمير

شيكو ميندِز :
«لا لِإزالَةِ الغابات»

Chico Mendes : « Non à la déforestation » © Actes Sud, France, 2010
تُرجِم إلى اللّغة العربيّة لدى سمير دار نشر
حقوق التّرجمة © سمير دار نشر 2016
سنّ الفيل الجسر الواطي، ص.ب. 55542، بيروت، لبنان
www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-865-3

الَّذينَ قالوا لا

إيزابيل كولّومبا

شيكو مينِدز

لا لِإزالةِ الغابات

سمير

إلى شَجَراتي الكَبيرَةِ،
ماري-تيريز وَأَلفونْس،
إيلين وَسيريل، أُوديت وَپول.
إلى أُمّي،
ماري، الَّتي تَتَنَفَّسُ كَشَجَرَةٍ.
إلى نَبتاتي الشّابَّةِ،
جوليان، ڤيكتور، باربَرا وَچاسپار.

1953

الصَّبِيُّ الصَّغيرُ وَالشَّجَرَةُ الَّتي تَبكي

يَنَفُخُ الصَّبِيُّ الصَّغيرُ صَدرَهُ وَيَتَوَغَّلُ في الغابَةِ كَمَن يَغطِسُ في المُحيطِ. وَهوَ غائِصٌ تَحتَ أَشجارِ الأَمازونِ العِملاقَةِ، لَيسَ في حاجَةٍ إلى قَطعِ النَّفَسِ، وَلا إلى أَيِّ جِهازٍ لِلتَّنَفُّسِ، فَالغابَةُ كُلُّها هِيَ كيسُ أُكسيجينٍ ضَخمٌ يَجعَلُ قَلبَهُ وَقَلبَ والِدِهِ الَّذي يَمشي أَمامَهُ تَمامًا، وَقُلوبَ جَميعِ الكائِناتِ الحَيَّةِ الَّتي تَعيشُ عَلى الأَرضِ، تَخفُقُ. وَلكِنَّ الصَّبِيَّ الصَّغيرَ، كَغالِبِيَّةِ النّاسِ في تِلكَ الحِقبَةِ، لا يَعرِفُ ذلِكَ.

يَبلُغُ شيكو مِنَ العُمرِ تِسعَ سَنَواتٍ فَقَط، وَهيَ المَرَّةُ الأُولى الَّتي يَصطَحِبُهُ فيها والِدُهُ إلى أَعماقِ الغابَةِ. مَعًا، سَيَجتازانِ طَبَقاتٍ عَديدَةً مِن كَثافَتِها الخَضراءِ المُعتِمَةِ، بَعيدًا عَن الفُرجَةِ حَيثُ يَعيشانِ في كوخٍ عَلى أَوتادٍ، يَقَعُ هُوَ نَفسُهُ عَلى بُعدِ ساعاتٍ مِنَ المَشيِ وَالتَّجديفِ في زَورَقٍ جِذعِيٍّ لِلوُصولِ إلى المَدينَةِ الأَقرَبِ، وَهيَ مَنطِقَةٌ تُدعى زاپوري.

هُنا، في عُمقِ الأَمازونِ، في مَكانٍ ما غَربِيَّ البَرازيلِ، هذا البَلَدِ الشّاسِعِ، وَتَحديدًا في وِلايَةِ أَكري، قُربَ الحُدودِ مَعَ بوليڤيا وَالپيرو، في التّاسِعَةِ مِنَ العُمرِ، يَتَعَلَّمُ كُلُّ ابنِ **سِرينْچِيْرو** (جامِعِ المَطّاطِ) مِهنَةَ رِجالِ العائِلَةِ: جَنيَ المَطّاطِ.

مُنذُ نُعومَةِ أَظفارِهِ، تَعَلَّمَ شيكو أَن يَكونَ مُفيدًا في المَنزِلِ. لكِنَّ أَكبَرَ الأَولادِ يَجتازُ، هذِهِ المَرَّةَ، مَرحَلَةً: إنَّهُ يَترُكُ أُمَّهُ لِيُساعِدَ والِدَهُ.

يَرتَجِفُ شيكو في قَبضَةِ لَيلٍ رَطبٍ يَلُفُّ الطَّبيعَةَ مِنَ الجِهاتِ كُلِّها بِشِباكِهِ الكَتيمَةِ غَيرِ الشَّفّافَةِ، باعِثًا رَوائِحَ مُختَلِفَةً لِلثّومِ وَالسَّرخَسِ، لِلأَعفانِ وَاللَّيمونِ،

لِلجَوزِ وَالسَّحلَبِيّاتِ. تُحيطُ العَتمَةُ اللَّيلِيَّةُ بِشيكو وَتَختَرِقُهُ مُتَسَرِّبَةً إلى تَحتِ ثِيابِهِ، تَحتِ بَشَرَتِهِ، حَتّى إلى داخِلِ عِظامِهِ. إنَّها تَغمُرُهُ مِن رَأسِهِ حَتّى أَخمَصَيهِ. لا يَحيدُ شيكو بِنَظَرِهِ عَن ضَوءِ مِصباحٍ ثَبَّتَهُ والِدُهُ عَلى جَبينِهِ، فَهوَ يَتبَعُهُ مُتَقَدِّمًا عَلى رُؤوسِ أَصابِعِهِ. لَقَد سَمِعَ الكَثيرَ مِنَ القِصَصِ وَالحِكاياتِ وَالخُرافاتِ، إلى حَدٍّ أَنَّهُ يَحرِصُ في سَيرِهِ عَلى عَدَمِ إزعاجِ سُكّانِ الغابَةِ الَّذينَ لا يَراهُم، بَل يَتَخَيَّلُهُم.

هُنا، في هذا الجُحرِ الأَسوَدِ، في الأَمازونِ، يَبدو اللَّيلُ مَأهولًا أَكثَرَ مِنهُ في أَيِّ مَكانٍ آخَرَ. فَالأَشجارُ أَوَّلًا، عِملاقَةٌ، دائِمَةُ الشَّبابِ وَخالِدَةٌ، تَفرِضُ قانونَ مَملَكَتِها وَجَبَروتَها الصّامِتَ. وَثابِتَةً في مَكانِها، تَتَمَدَّدُ أَو تَرزَحُ لِثِقلِها تَحتَ ضَوءِ القَمَرِ، الكَوكَبِ الوَحيدِ الَّذي تَقبَلُ تَأثيرَهُ، وَالَّذي يُعرَفُ أَحيانًا، بِفَضلِ شُعاعٍ يَتَسَلَّلُ إلى الأَرضِ. تَتَنافَسُ الأَشجارُ العِملاقَةُ، وَلكِن بِدونِ أَن تَتَصارَعَ مُطلَقًا، لِلِاقتِرابِ مِنَ الشَّمسِ الَّتي سَتُشرِقُ قَريبًا عَلى بِساطِها الأَخضَرِ المُمتَدِّ عَلى مَدى النَّظَرِ. يَبلُغُ بَعضُ الأَشجارِ ارتِفاعَ

مَبنًى مِن عِشرينَ طابِقًا. وَهيَ تَجمَعُ عَلى جُذوعِها وَعَلى أَغصانِها مُستَعمَراتٍ كامِلَةً مِنَ الحَيَوانات وَالنَّباتاتِ، كَما تَجوبُها جُيوشٌ مِنَ الحَشَراتِ في جَميعِ الاِتِّجاهاتِ. كُلُّ شَجَرَةٍ هِيَ مَدينَةٌ بِحَدِّ ذاتِها. وَهُنالِكَ فَوقُ، تَحتَ السَّماءِ مُباشَرَةً، تَأوي رُؤوسُها عائِلاتٍ، لا بَل مُجتَمَعاتٍ كامِلَةً مِنَ القُرودِ وَالبَبَّغاواتِ الَّتي تُفَضِّلُ العَيشَ بَعيدًا عَنِ الأَرضِ، حَيثُ تَتَكاثَرُ الحَيَواناتُ المُفتَرِسَةُ.

فَجأَةً، تَجَمَّدَ شيكو، فَقَد سَمعَ صَوتًا يُشبِهُ الدَّمدَمَةَ. هَل يُمكِنُ أَن يَكونَ زَئيرَ يَغْوَرٍ يَصطادُ عَلى الأَرضِ أَو يَكمُنُ مُتَمَدِّدًا عَلى غُصنِ شَجَرَةٍ؟ يَرتَعِبُ الصَّبِيُّ الصَّغيرُ كَثيرًا مِنَ اليَغاورِ. حاوَلَ أَن يَتَعَقَّلَ، أَن يَقولَ مُكَرِّرًا: «لا، اليَغاوِرُ لا تَفتَرِسُ البَشَرَ!»، كَما زَفَرَ الهَواءَ الرّاكِدَ في رِئَتَيهِ، وَأَفرَغَ حَلقَهُ مِنَ المَخاوِفِ الَّتي تُقَرقِرُ داخِلَ مَعِدَتِهِ وَتَفرُمُهُ قِطَعًا ناعِمَةً، ثُمَّ حَثَّ الخُطى، وَاستَأنَفَ مَشيَهُ مُقتَفِيًا آثارَ والِدِهِ، حَريصًا عَلى أَلّا يَنحَرِفَ عَنِ الخَطِّ الَّذي يُحَدِّدُهُ الضَّوءُ المُنبَعِثُ مِنَ المِصباحِ المُثَبَّتِ عَلى جَبهَةِ فَرَنسيسكو،

مُتَجَنِّبًا الأَغصانَ، مُرتَقِيًا الجُذوعَ، دائِرًا حَولَ النَّباتاتِ المُعَرِّشَةِ الَّتي تُعيقُ المُرورَ أَحيانًا. في التّاسِعَةِ مِن عُمرِهِ، يَعرِفُ الصَّبِيُّ ما تَشتَمِلُ عَلَيهِ غابَةُ الأَمازونِ مِن مَخاطِرَ مُميتَةٍ. إنَّ خَطوَةً بِالوَرْبِ قَد تَكونُ قاتِلَةً لَهُ، فَلَدغاتُ الأَفاعي تُعمي الإنسانَ في عَشرِ دَقائِقَ أَو تُسَبِّبُ لَهُ الِانتِفاخَ الشَّديدَ، وَلَسعَةُ النَّملَةِ **توكَنديرا** تُسَبِّبُ لَهُ غَيبوبَةً عَميقَةً، هذا بِدونِ الحَديثِ عَنِ الخَطَرِ الأَقصى الَّذي تُمَثِّلُهُ الرُّتَيلاواتُ وَالدَّبابيرُ.

فَجأَةً، تَوَقَّفَ والِدُ شيكو أَمامَ جِذعٍ هائِلٍ وَعَريضٍ، يَستَحيلُ عَلَيهِ تَطويقُهُ بِذِراعَيْهِ: إنَّها شَجَرَةُ مَطّاطٍ، قِشرَتُها مُخَطَّطَةٌ مِنَ الأَسفَلِ إلى الأَعلى، بِأَثلامٍ دَقيقَةٍ عَلى شَكلِ V، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ.

- شيكو، اُنظُرْ!

فَرَكَ شيكو عَينَيهِ لِيُبَدِّدَ سُحُبَ النُّعاسِ. في مَدرَسَةِ الغابَةِ، يَبدَأُ النَّهارُ قَبلَ الفَجرِ بِكَثيرٍ. مُنذُ أَن قَفَزَ مِن أُرجوحَتِهِ الشَبَكِيَّةِ وَابتَلَعَ القَليلَ مِنَ دَقيقِ المَنيهوت وَاللَّحمِ المُقَدَّدِ، إنَّها المَرَّةُ الأُولى الَّتي يَتَوَقَّفُ فيها. سَمَّرَ الصَّبِيُّ عَينَيهِ عَلى حَرَكَةِ والِدِهِ الَّذي يَستَعمِلُ

سِكّينًا خاصًّا يَحُزُّ بِهِ جِذعَ الشَّجَرَةِ. وَبِالضَّبطِ، سَلَخَ فرَنسيسكو شَريطًا رَقيقًا مِنَ اللِّحاءِ تَحتَ السّابِقِ مُباشَرَةً، راسِمًا شَكلَ V آخَرَ. وَفي الحالِ، جَرى سائِلٌ أَبيَضُ في كوبٍ حَديدِيٍّ وَضَعَهُ فرَنسيسكو تَحتَهُ. إِنَّهُ يَبدو كَالحَليبِ، وَلكِنَّهُ نُسغُ الشَّجَرَةِ الَّذي لا يُصبِحُ مَطّاطًا إِلّا بَعدَ تَسخينِهِ.

قالَ والِدُ شيكو:

- أَنتَ تَفهَمُ الآنَ لِماذا يُسَمّيها الهُنودُ «الشَّجَرَةَ الَّتي تَبكي»! سَنَعودُ بَعدَ ساعَتَينِ أَو ثَلاثٍ عِندَما تَجِفُّ دُموعُها.

أَذهَلَ شيكو جَمالُ هذِهِ الأَخاديدِ الـمُتَدَفِّقَةِ مَوجاتٍ عَلى جُذوعِ الأَشجارِ الَّتي تَبدو وَكَأَنَّها قَد وُشِمَت بِها. حاوَلَ عَلى بُعدِ مِئَةِ مِترٍ، أَن يُقَلِّدَ والِدَهُ، وَقَد أَحسَنَ صُنعًا، فَقالَ لَهُ فرَنسيسكو مُشَجِّعًا:

- كَما تَرى، إِنَّ استِخراجَ النُّسغِ لَيسَ أَمرًا مُعَقَّدًا. وَلكِن، يَجِبُ أَن تَكونَ صَبورًا لِأَنَّ الأَشجارَ يُمكِنُها أَن تَتَعَرَّفَ إِلى اليَدِ الَّتي تَفصِدُها، وَهيَ في حاجَةٍ دائِمًا إِلى الوَقتِ لِتَتَعَوَّدَ عَلى يَدٍ جَديدَةٍ.

قَرَأَ شيكو في عَينَي أَبيهِ أَنَّهُ فَخورٌ بِهِ.

- هَل سَتُعَلِّمُني أَيضًا القِراءَةَ وَالكِتابَةَ وَالحِسابَ؟

أَجابَ الوالِدُ مُحتَجًّا:

- سَبَقَ أَن عَلَّمْتُكَ كُلَّ ما أَعرِفُهُ!

عَبَسَ شيكو زامًّا شَفَتَيهِ، فَبِفَضلِ والِدِهِ، عَرَفَ بَعضَ المَبادِئِ الأُولى لِلقِراءَةِ وَالكِتابَةِ، وَلِذلِكَ هُوَ مَحظوظٌ. إِنَّهُ أَمرٌ غَيرُ مَألوفٍ عِندَ **السِّرينْچِيْروس** (جامِعي المَطّاطِ)، وَلكِنَّ ذلِكَ لَيسَ كافِيًا، بِالنِّسبَةِ إِلى الصَّبِيِّ. يُريدُ أَن يُصبِحَ قادِرًا عَلى فَهمِ الأَرقامِ الَّتي يُدَوِّنُها **الپاتْراو** (صاحِبُ العَمَلِ) عَلى دَفتَرِ حِساباتِهِ، وَتِلكَ الغَمغَمَةِ الَّتي لا يَفهَمُها والِدُهُ وَلا يَستَطيعُ مُطلَقًا أَن يَطعَنَ في صِحَّتِها. **الپاتْراو** هُوَ السَّيِّدُ هُنا، وَفَضلُهُ عَلى **السِّرينْچِيْروس** يَجعَلُهُم أَشباهَ عَبيدٍ. وَما داموا يَسكُنونَ وَيَعمَلونَ عَلى هذِهِ القِطعَةِ مِنَ الغابَةِ الَّتي يَملِكُها **الپاتْراو**، فَعَلَيهِم أَن يُسَلِّموهُ مَحصولَهُم وَيَقبَلوا السِّعرَ الَّذي يُحَدِّدُهُ لَهُم. وَنَظَرًا لِعَدَمِ وُجودِ عُملَةٍ يَتَداوَلونَها، لا يَستَطيعُ هؤُلاءِ التَّمَوَّنَ بِالمَأكولاتِ وَالأَدَواتِ إِلّا مِن عِندِ **الپاتْراو**.

طُبِع هذا الكتاب لدى مطابع دار الكتب-دوتس في بيروت،
في كانون الثّاني (يناير) 2016

الَّذينَ قالوا لا
رِوايـاتٌ تـاريخِـيّــة

قالَ شيكو بِدونِ عِدائِيَّةٍ، وَلكِن بِصَرامَةٍ:

- يَجِبُ أَن تُلقوا مَناشيرَكُمُ الآلِيَّةَ!

وَفيما هُوَ يَتَلَفَّظُ بِهذِهِ الكَلِماتِ، تَكَوَّنَ تَجويفٌ بَينَ حاجِبَيهِ أَشبَهُ بِالشَّطبِ.

تَقَدَّمَ زَعيمُ نِقابَةِ السِّرينْچيْروس وَحدَهُ نَحوَ الطَّوقِ الأَمنِيِّ الَّذي شَكَّلَهُ رِجالُ الشُّرطَةِ. لَم يَكُنْ يُوَجِّهُ الكَلامَ إِلَيهِم، بَل إِلى ثَلاثَةِ رِجالٍ يُطَأطِئونَ رُؤوسَهُم مُختَبِئِينَ تَحتَ قُبَّعاتِهِم، وَقَد كُلِّفَ رِجالٌ مُسَلَّحونَ يَرتَدونَ الزِّيَّ العَسكَرِيَّ بِحِمايَتِهِم. ثَلاثَةُ عُمّالٍ يَدفَعُ لَهُم مُرَبّي المَواشي لِيَقطَعوا الأَشجارَ.

www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-865-3
9 789953 318653